



المبرد وتأسيس الثقافة العربية

أحمد يوسف علي

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم

جامعة قطر : صندوق بريد: 2713 ، دولة قطر

جامعة قطر

ahmed@qu.edu.qa

ملخص -

يناقش هذا البحث فكرة أساسية هي: موقع نقد الشعر في كتابات المبرد الأزدي. وتنطلق هذه المناقشة من صلة النقد بالثقافة بشكل عام ودور المبرد وأقرانه سابقين عليه ومعاصرين له ولاحقين له في تأسيس هذه الثقافة ابتداء من ثقافة اللغة ونضج علومها في القرن الثالث الهجري. وثقافة الذوق والتقييم وثقافة إدراك المفارقة الدائمة بين الماضي والحاضر وبين الجديد والقديم وبين اختلاق أساليب كتابة الشعر. هذه المفارقة هي التي كانت العماد الأساسي الذي قامت عليه حركة الشعراء المحدثين، وما صاحبها من نقد متعاطف معها أو مضاد لها. وقد انتهت هذه المناقشة الواسعة إلى رؤية موقف المبرد من هذا الشعر ومن كبار شعرائه عبر كتبه ورسائله.

Almubarrred and foundingof the Arabic culture

Research Summary -

This paper discusses a basic idea which is: Hair criticism site in the writings of Almubarrred Al Azdi. The start of this discussion of link exchange culture in general and the role of Almubarrred and former peers him and his contemporaries and his subsequent establishment of this culture in the beginning of the language and culture of the maturity of sciences in the third century. And the culture of taste and culture of evaluation and realization of permanent paradox between the past and the present and between new and old and between fabrication methods of writing poetry. The irony is that this was the central pillar upon which the modern movement of poets, and the accompanying criticism sympathetic with them or counter them. This extensive discussion has ended to see of Almubarrred this hair and a senior position poets through his books and his letters.

توطئة -

لعل كلمة من الكلمات لم تحظ بما حظيت به كلمة الثقافة من انتشار على الألسنة وعلى صفحات البحث العلمي وفي قاعات المؤتمرات حيث التنافس العلمي والمباريات العقلية. فقد تنافست مجالات عديدة على صوغ مفهوم لهذه الكلمة التي غدت بالغة الوضوح وبالغة الغموض شأنها شأن كثير من الكلمات التي نتداولها في حياتنا اليومية مثل الحق والعدل والحب والجمال والخير ومع ذلك لا نتفق على مفهوم واحد يحكم قنوات التواصل بيننا. من هنا كنت حريصا على تحديد ما أعنيه بالثقافة الواردة في عنوان هذا البحث. فهي فيما أرى ويرى غيري من علماء علوم الإنسان مفهوم شامل لحياة الإنسان منذ ما قبل ميلاده حتى ما بعد موته. بمعنى أنها تتضمن كل طرائق التفكير والإبداع والقانون وما يدخل في حياة الإنسان من منتجات العقل والوجدان ومنتجات اللاوعي أي يتجاوز فيها العقل والخرافة كما يتجاوز فيها العلم والفن. ونصوغ فيها الصورة العقلية عن الأشياء المرئية وغير المرئية والمدركة والبعيدة عن الإدراك، ونحدد فيها صورة ما نحب وما نكره وما نؤمن به وما لا نؤمن. نودعها انتصارنا على الضرورات وعلى الأغيار كما نودعها إخفاقنا وأشواقنا نحو البعيد من الآمال والقريب من الأحلام.

الثقافة إذن هي " الوجه الإنساني من العالم الطبيعي، فإذا كان هذا العالم يزودنا بالمواد الأولية، فإن الثقافة هي التي تحدد أسلوب استثمار تلك المواد لخدمة مطالبنا. أي أنها هي التي ترسم الخطة التي يزاول بها الإنسان فاعلياته فكرا وسلوكا في صميم عالمه وبيئته. فهي أسلوب الحياة الذي ينطوي على معتقدات وعادات ومهارات، ويتضمن البواعث والأهداف التي تحث الفرد والجماعة على المشاركة في إنشاء النظم والمؤسسات المادية والروحية، كما تحمل في باطنها المبادئ والقيم والمقاييس التي تقدر بموجبها تلك الأساليب والنظم الثقافية نفسها ويحكم عليها. وتصاغ الثقافة من مجموع جوانب فاعلية الإنسان على نحو ما يفصح عنها في دينه وفلسفته ودينه وعلمه ومن قبل ذلك في لغته وأساطيره وسحره وكما تتجسد في نظمه وتقنياته"⁽¹⁾

هي بهذا المعنى إطار أشمل للتراث ورحم يتخلق فيه ويتحدد دوره وموضعه. لهذه الثقافة مكونات أساسية منها الفكر النقدي والجمالي ووظيفته وأدواته، لذا تناولنا في بحثنا هذا دور المبرد بين أقرانه سابقين ومعاصرين فيما أسميناه تأسيس الثقافة العربية لإيماننا أن ما صنعه المبرد وأقرانه مثل الجاحظ وابن قتيبة وقبلهما سيبيويه والخليل صار بمثابة البذور الأولى التي نمت وترعرعت وتأسست عليها كل مجالات العلم والمعرفة إما بالاتفاق أو الاختلاف أو هما معا أو بالإضافة والحذف.

-1-

عاشت الثقافة العربية زمنا طويلا تعتمد على السماع والرواية وتقيم للرواية وسند الرجال وزنا كبيرا في النقل والاتباع والتوثيق والتحقيق وأسقطت قيمة المنقول عبر التدوين أو المكتوب وعدته من النصوص المشكوك فيها كما عدت صاحبه من غير العلماء الموثوق بهم. ومن هنا كان حرص علماء الحديث مثلا

على التحقق من عدالة الرواة وسلسلة السند ووضعهم في طبقات ترتبت عليها درجات صحة النص وحسنه.

ولكن ظروف التمدن العربي وخاصة في العصر العباسي الذي احتل فيه ذؤو القوميات غير العربية مكانة أكبر، والميل إلى الاستقرار في المدن والنتعم بأسباب الحياة الجديدة، وهجرة أعداد كبيرة من أبناء الجزيرة العربية الموطن الأول للعربية وثقافتها إلى بلاد جديدة تهاأت فيها الحياة الهادئة والثروة والسلطان، وسعي الخلفاء الجدد إلى الاستعانة بأبناء الحضارات القديمة لتوطيد أركان الدولة ومؤسسات الحكم والاستعانة بتجاربهم وثقافتهم وعلومهم، ومزاحمة اللغات الأخرى للعربية مثل مزاحمة الثقافات الوافدة للثقافة العربية البسيطة المعتمدة على الذاكرة والرواية والمشافهة. كل ذلك وغيره فرض واقعا جديدا وهو إما التدوين وإما الضياع وإما الانفتاح والمواجهة وإما الهوان والانقراض.

وقد فرض هذا الواقع الجديد استجابة جديدة هي الالتفات بقوة إلى متطلبات اللحظة الراهنة المتمثلة في النظر إلى المنقول باعتباره معرفة إن لم تدعم تفسير مشكلات الواقع فلا قيمة لها. كما تمثلت أيضا في كيفية النظر إلى هذه المعرفة هل نأخذها من منطلق الثقة والتسليم بأن كل قديم مفيد وصحيح - وهنا لا مفر من تجاهل الواقع الجديد- أو نأخذها من منطلق الشك في كل شيء بإخضاعه لمنطق العقل ونزع القداسة عن الأشخاص مهما علت قيمتهم وابتعد زمنهم.

تصف الطلؤل على السماع بها
الفهم

وإذا وصفت الشيء متبعا
لم تخل من زلل ومن وهم

قل لمن يبكي على رسم درس
جلس

لقد كانت الثقافة المروية ثقافة محورها الشعر الجاهلي والإسلامي باعتباره ديوان العرب الذي لم يكتفوا بأن يسجلوا فيه رؤيتهم الشعرية للكون والإنسان والموت والحياة والأشياء بل جعلوه كتابهم الأول الذي أودعوا فيه كل ما استطاعوا إيداعه من تجاربهم الحياتية الجمالية والنفعية في سياق لا يفرق بين النافع والجميل. هذا الديوان الكبير كان أساس اللغة: لغة البدو ولغة الحضار لذا اتجهت جهود التدوين أولا إلى الشعر لمحوريته الثقافية ولضرورته العلمية في فهم كتاب السماء الذي نشأ حول آياته - خاصة المتشابه منها - جدل واسع ومفيد لتفسيرها وتأويلها. كما لم تغفل هذه الجهود ضرورة الشعر الاجتماعية في تسجيل المناقب والأيام والأنساب

-2-

في هذا الصدد وجدنا مجموعة من مؤسسي الثقافة العربية وجامعيها. في الجيل الأول سيبويه " الكتاب" والخليل بن أحمد " العين": الأول في النحو -

نظام اللغة -والثاني في اللغة ووصف موسيقى الشعر- يواكبهما أبو عبيدة في "مجاز القرآن" والفراء في "معاني القرآن". وكان عطاء هؤلاء ثمرة من ثمار العصر العباسي الأول الذي تبلور فيه علم النحو وعلم العروض بجوار ما تبلور من مذاهب الشعر ومذاهب الفقه الأربعة. ولعلنا نلاحظ أن هذا النتاج العلمي المتميز قد تبلور حول اللغة ونحوها بوصفها وعاء الثقافة والهوية في عصر امتزجت فيه الثقافات والأجناس واللغات وازداد الإحساس بالخطر على الهوية العربية، كما وفدت إليه العلوم من أمم أخرى أسبق حضارة وأقوى تأثيراً وأرسخ استقراراً. وتبلور اللغة والنحو وفر أداة قوية لفهم الظاهرة القرآنية بوصفها ظاهرة أسلوبية فريدة لم تسبقها ولم تلحقها ظاهرة أسلوبية لغوية أخرى مماثلة، كما وفرت مباحث اللغة والنحو مدخلاً علمياً موضوعياً للخليل ساعده على وصف ذلك النغم الذي اكتنف شعر العرب منذ أن كتبوا الشعر ولم يفهموا طبيعة هذا النغم ولا أصوله وإن شعروا به.

لقد رسخ هذا الجيل المبكر قواعد مهمة في بناء الثقافة العربية إذ وضع للغة نظامها وللشعر إطاره النغمي ووضع اللبنات الأولى في فهم الملامح الأسلوبية العامة للقرآن وللشعر معاً كما في "مجاز القرآن" و "معاني القرآن" ومع مطلع العصر العباسي الثاني وجدنا ابن سلام المتوفى ²³² هجرية والجاحظ المتوفى ²⁵⁵ هجرية وابن قتيبة المتوفى ²⁷⁶ هجرية والمبرد المتوفى فيما بين ²⁸⁴ هجرية و ²⁸⁶ هجرية. ولعلنا نلاحظ أننا لانستطيع أن نطلق على واحد من هؤلاء وصفاً تمييزياً محدداً. فالجاحظ - مثلاً - وهو أشهرهم معتزلي الفكر عربي الثقافة والهُوى لغوي مفسر حفي بالقرآن ونظمه وعالمه، كاتب ساخر ولا يتيح لقاريء كتاب من كتبه فرصة الاستمتاع بموضوع واحد يقرأه. بل يمارس على قارئه سطوة المعرفة المتعددة الأبعاد والمصادر والأزمنة والأمكنة والشخصيات. فقد أخذ اللغة عن أشياخها الكبار: الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش الأوسط، وأخذ الحكمة عن صالح بن جناح اللخمي، وتفقه في الاعتزال على شيخ المعتزلة في عصره إبراهيم بن سيار النظام. هذا فضلاً عن وعيه المبكر بالثقافات الوافدة من الهند والفرس واليونان والرومان

أما ابن سلام فهو أحد علماء بيئة اللغويين والإخباريين أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث، وهو من علماء عصره في الأدب والنحو ومن كبار المحققين خالط كبار اللغويين مثل يوسف بن حبيب وخلف وأبي عبيدة والأصمعي والمفضل الضبي وأفاد منهم كما أفاد من الإطار الثقافي الذي كان في البصرة. وامتاز عن أساتذته وأقرانه بأنه شارك معاصريه في كثير من الأفكار ولكنه حققها وأضاف إليها وأعطاه صبغة علمية وجعلها في كتاب هو خلاصة ما قيل في عهده في أشعار الجاهلية والإسلام ولعله أسبق الكتب إلى ذلك⁽²⁾. ولم يكن كتاب ابن سلام "طبقات فحول الشعراء" كتاباً خالصاً في النقد الأدبي، ولا في تاريخ الأدب العربي، ولا في اللغة أو في غير ذلك من الموضوعات، ولكنه كتاب جامع لعدد من الموضوعات لعل أهمها حرصه على

دراسة الشعراء العرب في الجاهلية والإسلام واعتمد في ذلك على فكرة الطبقات مع أنه كان معاصرا لقضية الشعراء المحدثين وما أحدثه شعرهم من انقسام حاد في الأذواق . لقد صرف كل اهتمامه إلى تأسيس منهج علمي لتحرير الأصل من الزائف من الشعر بعد أن اختفى أو توارى دور الرواية وبرز دور التدوين وظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الشعر العربي في الجاهلية والإسلام بوصفه ذاكرة الأمة ومرجعية وعيها الثقافي واللغوي والتاريخي وتوقف الأخذ بشعر الاحتجاج عند منتصف القرن الثاني الهجري وكان إبراهيم بن هرمة آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم . ولكن ظل السؤال الأساس عند ابن سلام هو كيف نتحقق من النصوص الشعرية وننسبها النسبة الصحيحة إلى أصحابها؟ لأن الأخذ بالرواية المنحولة أو المشكوك في صحتها ليس معناه فقط تزيف نسبة النص إلى صاحبه ولكن أيضا تزيف الوعي بنسب الفضل إلى غير أهله . وليس هناك من يتحقق من صحة النص إلا الناقد البصير الذي وفر له ابن سلام صفات تؤهله للقيام بمهمته العلمية وتجعل حكمه حكما موثوقا به ولا يرد.

وكان ابن سلام بذلك فيما نعلم أول من وضع في الثقافة العربية مبدأ الناقد البصير أو العالم وجعل عمله عملا مستقلا وخبرته لا تقل عن خبرات ذوي الأعمال العقلية أو الأعمال المادية مثل الصيرفي أو الخبير بأنواع الدواب . إنه بذلك جعل للشعر علما عندما أسس للناقد هذه المكانة . يقول : " للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما يتفقه العين وما يتفقه الأذن ومنها ما يتفقه اليد ومنها ما يتفقه اللسان " فالشعر عنده صناعة وثقافة لا يدركها إلا أهل العلم بها . وهذه الصناعة أو الثقافة متعددة مجالات إدراكها بتعدد الحواس ومجالاتها ويختص الناقد بثقافة اللسان كما يختص غيره بمجاله " من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره . ومن ذلك الجهيذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا رسم ولا صفة ويعرفه الناقد عند المعاينة ، فيعرف بهرجها وزائفها ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسّه وذرعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه . وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر . ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء : إنه لندي الحلق ، طل الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلاصفة ينتهي إليها ولا علم يوقف عليه ، وإن كثرة المدارس لتعدي على العلم به ، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم . " (3)

" فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به " فقد رسخ ابن سلام علم الشعر بعد أن كان علما مباحا لكل الناس ونظرا لأهمية العالم بالشعر أو الناقد البصير وأهمية حكمه فقد جعل من أهم صفاته الخبرة والممارسة وتراكم المعرفة والتجارب .

إن ما صنعه ابن سلام هو الذي نما وتطور لدى ابن قتيبة الذي قال : " والمتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً فليس فيه خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه" (4) "فذنو العلم" لا يخفى عليهم صنعة الشاعر وإن دقت. فابن قتيبة يعود من جديد إلى الناقد البصير الذي أشار إليه ابن سلام فهو وحده الذي يتبين آثار الصنعة في الشعر أي آثار الجودة الناجمة عن قلة خبرة الشاعر بصنعتة وهي- بالإضافة إلى طول التفكير والمعاناة - كثرة الضرورات مثل الإتيان بقافية دخيلة غير مناسبة، أو نصب المرفوع أو رفع المنسوب، أو صرف الممنوع من الصرف أو غير ذلك من الضرورات.

ولم ينقطع تأثير ابن سلام، فقد امتد إلى أبي بكر الصولي - المتوفي 336 هجرية الذي انفرد بكتابه " أخبار أبي تمام " متأملاً في قضية الناقد الأدبي أو العالم بالشعر حين واجه مشكلة الحكم على شاعر انفرد بأسلوبه في كتابة الشعر هو أبو تمام الذي لم تكن استجابة المتلقين لشعره استجابة إيجابية سواء في حياته أم بعد موته. وكأن ما واجهه ابن سلام في مسألة التحقق من نصوص الشعر العربي في الجاهلية والإسلام تتكرر ولكن على نحو آخر تمثل في كيفية مواجهة الخروج على ما هو سائد من أساليب الكتابة الشعرية وتجرو من لا يفهم ولا يمتلك القدرة على الفهم والحكم على التصدي لشاعر محدث هو أبو تمام بالنيل منه والخط من شأنه لمجرد أنه مختلف أو اختلف عن السياق العام. في هذه المعمعة تبدو الحاجة أشد للناقد البصير الذي يمتلك القدرة على الفصل في الأمور بما لديه من وعي تاريخي يمكنه من الموازنة والتفضيل وبما لديه من علم بقنون الشعر وأساليب اللغة وطرائق الشعراء في كتابة الشعر. فكان الخوف من الاجترار على العلم والاستخفاف به هو الداء الذي تنبه له كبار النقاد على امتداد تاريخ النقد العربي القديم. ومن هذا الباب وقع ما وقع لشاعر مثل أبي تمام. يقول الصولي "..... وأبو تمام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره . فلعمري لقد فعل وأحسن ولو قصر في قليل - وما قصر - لغرق ذلك في بحور إحسانه. ومن الكامل في شيء حتي لا يجوز عليه خطأ فيه؟ إلا ما يتوهمه من لا عقل له..... وإنما أجريت هذا لنلا يجسر على الحكم على الشعراء وتمييز ألفاظهم والحكم بالجيد والردى لهم من لم يكن أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره، وأقدر الناس على شيء متى أرادته منه، وأحفظهم لأخذ الشعراء وأعلمهم بمغازيهم ومقاصده" (5)

وكما أكد ابن سلام وصف الناقد البصير بالعلم، أكد الصولي هذه الصفة بقوله: " هو أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره، وأقدر الناس على شيء متى أرادته منه وأحفظهم لأخذ الشعراء وأعلمهم بمغازيهم ومقاصدهم. فأما من لا يحسن أن يعمل بيتاً واحداً، ولا يكتب رقعة بليغة ولا ينال حفظه ما قالته الشعراء في عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه، فكيف يجسر على ادعاء هذا، وكيف يسوغه إياه من سمعه منه؟" (6)

ولم يكن الصولي وحده الذي انشغل بالبحث عن دور الناقد البصير وشخصيته في القرن الرابع الهجري ولكننا نجد هذه القضية تتوهج عند شخصية كبيرة مثل الباقلاني وعبد العزيز الجرجاني والأمدى. ولنتفقد عند الباقلاني مراعاة لظروف مساحة الكتابة. فقد كان مهموماً بالعالم الذي تتحقق على مائدة علمه فكرته عن إعجاز القرآن الكريم وهي أن هذا الكتاب العظيم انفرد بأسلوب بياني لا مثيل له ولا تصح معه المقاييس المعروفة بلاغياً ونقدياً ومن ثم فلا بد لمن يتصدى لتوضيح أسرار هذا الانفراد البياني البديع أن يكون على علم عظيم ودراية فائقة بتاريخ البيان وأساليب البلغاء والشعراء وأسرار العربية. هذا العالم الذي ينشده الباقلاني حكمه حكم لا يرد ولا يناقش ويكفي ما لديه من علم لنتق بما ينتهي إليه من حكم.

فالنقد دلالة على قيمة النص. لأن النص ليس كما ساكنا يتناولها الناقد بالتشريح والتفسير ولكن للنص وجوده المستقل المتميز الفعال يؤثر في الناقد كما يؤثر الناقد فيه. ومن ثم تأتي عملية النقد ذاتها لتكون ترجمة حية لطبيعة العلاقة القائمة بين النص والناقد. وبمقدار حيوية هذه العلاقة تكتسب عملية النقد دلالتها ومشروعيتها في الوجود، كما يكتسب النص ذاته بقاءه المستمر في الذاكرة النقدية.⁽⁷⁾

إن الناقد عند الباقلاني هو من يمارس الفاعلية النقدية ممارسة تكشف عن مكنون النص من حيث علاقته بغيره من النصوص، ومن حيث علاقة عناصره الفعالة كل بالآخر. فالنقد كما يرى الباقلاني وقبله ابن سلام صنعة من زاوية أن كل صنعة تقوم على اقتدار الصانع والحذق بأدوات صنعته مثلما أن الكلام صنعة ترتد إلى الصانع الذي يجيد نظمه ويقدر على الإبانة عما في النفوس إبانة تميزه دلالية ومعرفياً عن كل من يستخدمون المادة الأولية نفسها وهي مفردات اللغة وقوانينها.

وإذا كان نظم الكلام صناعة لا يجيدها إلا القليلون، فإن "نقد الكلام شديد، وتمييزه صعب"⁽⁸⁾ هكذا يرى الباقلاني لأن الناقد يمارس عملاً أشد مراساً من عمل المبدع الذي ينتج عملاً يحرص على أن يوفر له صفة التركيب والوحدة والتنوع. أما الناقد الحق فمهمته تبدأ من التعرف على هذا العمل تعرفاً أولياً يخلق بينهما ألفة ومودة، وتعرفاً ثانوياً يحاول من خلاله الكشف عن جمالياته بتحليله أي برد التركيب إلى عناصره الأولى مع الحفاظ على وحدته بحيث يستطيع تفسيره واكتشاف قيمته. لهذا السبب صار نقد الكلام شديداً وتمييزه صعباً وصار صناعة "قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب" ف "هذا أمر - وإن دق - فله قوم يقتلون علماء، وأهل يحيطون به فهماً، ويعرفونه لفطنتك إن حاولت. ولكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس. وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط. ولكنك قل من يميز في هذا الفن خاصة"⁽⁹⁾

هذا الوعي الجسور بصفات الناقد وضرورة عمله وصعوبة النقد لم ينشأ من فراغ عند أهل القرن الرابع الهجري ولم يأت ثمرة من غير بذرة ولكنه أفاد من البذور الأولى التي نشأت في تربة الوعي بضرورة الشعر العربي في صورته

الأولى عند الجاهليين خاصة والإسلاميين من بعدهم، والشعر العربي المحدث وما أثاره من مشكلات الصياغة والارتباط بزمان دون آخر.

فالشعر العربي عند الجاهليين والإسلاميين كان يمثل الأولية اللغوية والأولية العلمية اللذين صار بهما مرجعا ومصدرا علميا ولغويا ومعرفيا ونموذجا يحتذى في كتابة الشعر لمن أراد من الشعراء أن يكتب الشعر. وشعر المحدثين الذي ابتدأ ببشار كان شعرا أشبه بزمانهم كما قال الصولي والمبرد أو أنه جاء على مقدار إيقاع الزمان كما قال ابن المعتز. لذا اختلفت حوله الاستجابات وتباينت إلى حد التناحر والتناذب مثل " إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل أو أنك لا تجد فيه نفعا مثل كومة من تراب تبحث فيها عن الذهب فلا تجد إلا النزر اليسير . ومرد ذلك هو الإحساس بالتغير والتطور وأن حركة الزمن في صعود وإن لم توافقنا أو ننسجم معها. الإحساس بالتغير والتطور يكمن في الذوق العام أو في طبيعة الفن الشعري أو في المقاييس الأخلاقية التي يستند إليها الشعر أو في العادات والتقاليد التي يصورها أو في المستوى الثقافي ونوع الثقافة في فترة إثر أخرى أو في مجموعة من القيم على وجه التعميم، ذلك لأن الإحساس بالتغير والتطور هو الذي يلفت الذهن – أو ملكة النقد – إلى حدوث مفارقة ما. ولا بد لهذه المفارقة أول الأمر أن تكون ساطعة متباعدة الطرفين حتى تمكن النظر الذي لم يألها قبلا من رؤيتها بوضوح. وقد كان سمو النماذج الشعرية الجاهلية ثم حركة الإحياء لتلك النماذج في العصر الأموي وبعض العباسي واتخاذها قبلة للجميل أو الرائع من الشعر سببا في حجب كل حقيقة تطورية عن العيون. ولهذا لم يبدأ الإحساس بالتغير والتطور إلا حين أخذت بعض الأدواق تتحول عن تلك النماذج إلى نماذج جديدة تنحني أمام تيارات جديدة أو تصطدم بها وحين تعددت المنابع الثقافية وتباينت مستوياتها." (10) ١

٣-

ومن الصعب أن نفهم النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري بدون فهم الخصومة بين القدماء والمحدثين. فعهد القدماء شعريا يبدأ بالشعر العربي قبل الإسلام وينتهي بانتهاء عصر الاحتجاج بالشعر أوائل القرن الثاني الهجري ويضم الشعر والإسلامي والأموي. أما عصر المحدثين فيبدأ قبل بداية الدولة العباسية، يبدأ ببشار بن برد ويمتد مستمرا على مدى قرون هذه الدولة. وكما ارتبط فريق من الشعراء بالشعر القديم ارتباطا قويا ارتبط فريق من النقاد في القرن الثالث بهذا الشعر وجعلوه معيارا ثابتا لتقبل الشعر المحدث الذي مثله بشار وأبو نواس وأبو العتاهية وأبو تمام وغيرهم. وهذا الفريق كان من اللغويين من أمثال أبي عبيدة والأصمعي وابن الأعرابي والمبرد وأبي العباس ثعلب. هؤلاء غلب عليهم اشتغالهم باللغة جمعا ورواية واتخذوا الشعر وعاء للغة، ومن ثم فإن اهتمام هؤلاء بالنقد الأدبي جاء في المرتبة الثانية بعد مهمتهم الأصلية وهي جمع اللغة والاشتغال بتصنيفها وتدوينها، فقد كانوا يعنون بتراكيب اللغة وبنية الألفاظ وتحديد مدلولاتها ورواية الشعر وشرح معانيه.

وإذا كان هذا هو شأن اللغويين، فإنهم يفضلون الشعر القديم بوصفه المثل الأعلى للشعر، ويقبلون من الشعر المحدث ما تشابه مع هذا المثل أو كان جارياً على منواله. كان الشعراء المحدثون على حق فيما يصنعون. فقد كان التفاتهم إلى الماضي أقل من التفاتهم إلى الحاضر الذي تمثلت فيه عوامل التغير الاجتماعي والثقافي ثم التغير الذوقي، فقد كان شعرهم أشبه بعصرهم وزمانهم، وجدنا ذلك عند بشار وأبي نواس، كما وجدناه عند أبي تمام على مستوى الرؤية الفكرية والصياغة الأدبية ولأن واقعهم الاجتماعي كان متشابهك الاتجاهات إلى حد التعقيد ولم يكن مثل الماضي خالياً من تعقيدات المصالح وتعارضاتها، فلم يكن لديهم مفر من تصوير ذلك في شعرهم الذي غلبت عليه الصورة الشعرية المركبة المتميزة بتفاعل أطرافها ولم تعد هذه الصورة بسيطة واضحة يسهل فهمها على نحو يرضي فريق اللغويين وأنصار القديم من الشعر. منهج اللغويين يبحث عن الثبات والوضوح في الصورة الشعرية المحدثه التي لا تحقق لهم هذا المطلب. ومن هنا وجدنا تعصب هذا الفريق ضد الشعر المحدث وشعرائه الذين كانوا في معظمهم من المولدين. (11)

وعلى مستوى النقد، فإن ابن قتيبة والجاحظ مثالان للجمع بين القديم والجديد في اعتدال وتوازن. فكل منهما نال قدراً وافراً من الثقافة العربية بكل عناصرها، كما نال قدراً مماثلاً من العلوم الدينية والشرعية وكان له دور كبير في إثراء البحث البلاغي والمنطقي والفلسفي. ونشأ ابن قتيبة في القرن الثالث بعد تغلب اتجاه المحدثين وصار له أنصار عديدون" وخاصة في بغداد العاصمة الجديدة العباسية. استطاع بشار وأبونواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك أن يعجبوا الخلفاء المهدي والرشد والأمين والمأمون وأن يعجبوا كذلك طبقة الوزراء والكتاب والبرامكة وآل الربيع وآل طاهر وآل سهل ممن اتجهوا إلى هذا الاتجاه نفسه في الكتابة فأخذوا بأسبابه ووافقوا شعراء المحدثين في الذوق والمزاج. كذلك استطاع أبوتمام أن يدعم هذا الاتجاه بما اكتسبه من شهرة عريضة واسعة وما فرضه على الرأي العام الأدبي من احترام لاتجاهه وما كسب هو من مكانة فنية وعلمية وتقدير من أولي الأمر عند المعتصم ورجاله ودولته" (12)

-4-

في هذا السياق كان المبرد حاضراً ومدركا القضايا الكبرى المطروحة على مائدة الصراع الفكري والثقافي بشكل خاص. فقد استقبل حياة العلم وقد ترك له ابن سلام تاريخاً أدبياً له قواعد ومعايير نقدية للشعراء من الجاهليين والإسلاميين مدونا في كتاب ابن سلام "طبقات فحول الشعراء" ولم يخل هذا الكتاب من الانشغال بقضايا اللغة وغريبها ونحوها. فابن سلام - كما قدمنا - أفاد من الإطار الثقافي الذي كان في البصرة. وامتاز عن أساتذته وأقرانه بأنه شارك معاصريه في كثير من الأفكار ولكنه حققها وأضاف إليها وأعطاه صيغة علمية وجعلها في كتاب هو خلاصة ما قيل في عهده في أشعار الجاهلية والإسلام ولعله أسبق الكتب إلى ذلك. ولم يكن كتاب ابن سلام "طبقات فحول الشعراء" كتاباً خالصاً في النقد الأدبي، ولا في تاريخ الأدب العربي، ولا في

اللغة أو في غير ذلك من الموضوعات، وكان مع ذلك محسوباً على بيئة اللغويين والنحاة من أهل البصرة والمبرد واحد من أعلام هذه البيئة وابن من أبناء البصرة ومدرستها العلمية وقد استقبل الحياة عام 210 هجرية وتوفي ابن سلام عام 232 هجرية.

ولم يلتفت ابن سلام وهو واع إلى مسألة الشعراء المحدثين واختط لنفسه طريقاً عرف به وشخصية واضحة المعالم . أما المبرد فهو بلا شك واحد من كبار أهل النحو في المقام الأول : " يعد جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا وهو الذي نقلها وقررها، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها" (13) على نحو ما يصفه ابن جني . وهو من جامعي الثقافة العربية وكتابتها. وكتابه الكامل ذاخر بالوان هذه الثقافة حتى عصره ، ومع ذلك لم نجده ذا موقف واضح من مسألة جمع الشعر وتدوينه على نحو ما صنع سلفه ابن سلام. وحاول أن يلحق بركب الشعراء المحدثين بعد أن استقرت سفينتهم على شواطئ الخلفاء والوجهاء والأمراء وصار شعرهم هو الشعر الغالب على الأذواق وإن لم تقتر مقاومته والتقليل من شأنه واتهام كبار شعرائه بإفساد الشعر. فما موقف المبرد من هذه القضية: قضية الحداثة وماذا قدم فيها من مؤلفات وآراء ؟ وإلى أي مدى تركت آراؤه أثراً على نحو ما رأينا مثلاً من آراء ابن سلام.

وصل لنا من مؤلفات المبرد كتابه الكامل وهو محقق ومعروف في أربعة أجزاء ، وكتابه الروضة ، وكتابه المقتضب، وكتب أخرى كالفاضل ورسالة البلاغة وهي رسالة صغيرة حققها الدكتور رمضان عبد التواب. وكتابه الكامل هو أهم ما وصل لنا من كتبه التي ذاعت وانتشرت ونالت التقدير من أهل زمانه ومن مفكر وعالم عظيم مثل ابن خلدون. في حديثه عن "علم الأدب" ذكر هذا العالم أنه سمع من شيوخه في مجالس العلم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب هي: أدب الكتب لابن قتيبة و الكامل للمبرد و البيان ولتبين للجاحظ والنوادر لأبي علي الفالي. وسر الإشادة بهذه الكتب الأربعة هو أنها أقدم المراجع العربية التي تعرضت للبحث في الفن الأدبي – بمفهوم القدماء – كما يتمثل في فن الخطابة وفن الجدل والمناظرة وغيرهما من الأشكال الأدبية كالشعر والرسائل. (14)

يصف المبرد كتابه قائلاً: " هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة. والنية أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً." (15) مادة الكتاب هي المادة الأدبية وهي اختيارات أساسها ذوق المبرد وحده. فماذا كان موقفه من شعر المحدثين؟

ذكر المبرد مختارات للشعراء المحدثين في حوالي ستة مواضع من الكتاب وهو المكون من أربعة أجزاء ووظف هذه الاختيارات كما وظف غيرها لتخدم هدفه من الجمع والاختيار والتأليف. يوضح ابن خلدون هذا الهدف عند حديثه عن علم الأدب على نحو ما كان سائداً بقوله : " هذا العلم لا موضوع له ينظر

في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة ومسائل من النحو واللغة ماثورة أثناء ذلك متفرقة يستقريء منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه" (16)

فالكامل يضم مختارات رئيسة من اللغة والنحو والأدب والتاريخ تمثل المادة التعليمية اللازمة لصقل الملكة والتدريب على فنون القول وتكوين الذوق الفني. هذا الهدف الواضح الذي يمثل الغاية من أي تعلم حينئذ لم يكن يتسع لأشعار المحدثين إلا بالقدر الذي يتوافق به مع المادة اللغوية والشعرية المستقاة من القدماء. وهذا ما دعا المبرد أن يصف أول اختيار من أشعار المحدثين بقوله : " هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات، والخطب والكتب" فمعيار هذه الأشعار أنها من شعر الحكمة الملائم للمواقف التي يحتاج المتكلم فيها إلى قول مقنع أو مسكت وهذا دور المثل المعروف بإيجازه وتمثيلية دلالاته وقدرتها على التأثير ولذلك لم يختار المبرد من شعر محمد بن منذر - وهو من شعراء الصف الثاني المغمورين من المولدين - إلا شعرا له سمت كلام العرب " فله في شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته" ج²/ص 206

ومع أن شعر المحدثين كان الشعر السائد وأن الأصوات المناوئة لسيطرته كانت أصواتا متهاوية حتى وإن زاد صخبها، ومع أن المبرد كان معاشيا لشعراء القرن الثالث الهجري مثل البحتري وابن الرومي وابن المعتز وقبيلهم أبو تمام، ومطلعا على إنتاج كبار الشعراء في القرن الثاني أمثال بشار و أبي نواس ومسلم وأبي العتاهية، فإن كتاب الكامل على اتساعه لا تجد فيه آثار هذه الحركة الشعرية الثرية ولا تجد حضورا فاعلا وقويا للكبار من هؤلاء. حتى البحتري وهو صديق المبرد المقرب لم يرد ذكره مرة واحدة في هذا السفر الكامل ولم ينل أبو تمام حظا أوفر من حظ البحتري إلا على سبيل المناظرة والمحااجة بالشعر وكان المبرد لم يسمع عنه وهو الشاعر الذي شغل الناس حيا وميتا. فقد ذكر الصولي في كتابه " أخبار أبي تمام" أن المبرد وابن المعتز ورجل لم يسمه وهو من حفاظ الشعر اجتمعوا في مجلس من مجالس ابن المعتز وجرى ذكر أبي تمام ولم يوفه المبرد حقه ، فانتصر هذا الرجل لأبي تمام قائلا للمبرد " ضع في نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قال أبوتمام" ثم أورد من شعر أبي تمام أبياتا بعد أن سمعها المبرد أذن وعدل عن رأيه وقال : " ما سمعت أحسن من هذا قط. ما يهضم هذا

الرجل حقه إلا أحد رجلين : إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، وإما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه " (17) ويبدو أن المبرد هو هذا العالم الذي لم يتبحر شعر أبي تمام ولم يسمعه ولم يكن مستعداً لفهمه وتقديره مع أن ابن المعتز قال إن المبرد لم يمت إلا وهو متنقل عن جميع ما كان يقوله، مقرر بفضل أبي تمام وإحسانه" ويبدو أن الصداقة والمودة بين الرجلين جعلت ابن المعتز يشهد للمبرد هذه الشهادة التي ينكرها المبرد نفسه عندما سئل عن الطائيين - كما أورد صاحب أخبار أبي تمام - فقال : "لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحتري، وهو صحيح خاطر، حسن الانتزاع. وشعر البحتري أحسن استواء . وأبو تمام يقول النادر والبارد. وما أشبه أبا تمام إلا بغائص يخرج الدر والمخشلبة " والمخشلبة هي الخرز الأبيض يشبه اللؤلؤ وما هو باللؤلؤ. إن الدر نادر والغائص الذي يجهد نفسه في الغوص ثم يعود ولا يدري ما الدر وما الخرز. هذا الغائص في تقدير المبرد هو أبو تمام الذي عاد بعد عناء ومشقة وقد امتلأت حافظته بالكثير الذي يحسبه درا وما هو بالدر بل هو الخرز. بينما تلاحظ أن المبرد في حديثه عن البحتري لم يذكر له إلا سمة واحدة هي " حسن الاستواء " التي تشير إلى أسلوب البحتري القريب الواضح الذي لا يجهد الشاعر فيه نفسه ولا يختلط عليه الدر واللؤلؤ. ويروق هذا للمبرد الذي يقيس جودة الشعر بصحة معناه وجزالة لفظه وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس" الكامل ج¹ ص²⁸. فمعظم الأشعار التي استشهد بها للمحدثين في بعض مؤلفاته كالكمال لا تخرج في صفاتها عن صفات الشعر الجيد عند القدماء المحافظين. إذ تتضمن كثيراً من الأمثال والحكم والمعاني الخلقية النبيلة والعبارات الموجزة الرصينة⁽¹⁸⁾

وقد كتب المبرد كتاب "الروضة " ربما لاستدراك ما فاتته في كتابه العمدة " الكامل " وما فاتته ليس قليلاً: رجل يعيش في عصر هو القرن الثالث الهجري الذي استقرت فيه أمور الشعر المحدث وأمور الفكر الاعتزالي والفكر والفلسفة بعد ازدهار حركة الترجمة والدور العظيم الذي قام به الخليفة المأمون في هذا الصدد وترجمه ببناء دار الحكمة. كما استقرت في هذا القرن العلوم وعلى رأسها علما النحو واللغة وهما علما العربية، بجوارهما ازدهار القول في قضية اللغة المجازية سواء أكانت لغة القرآن أم لغة الشعر. واتضحت معالم النقد الأدبي واتجاهاته وتبلورت أهم قضاياها كما تجلت في كتابات الجاحظ وابن قتيبة وفي القلب منها الخلاف النقدي حول لغة الشعر المحدث وبناء القصيدة كما أسس أبو نواس ومسلم ورسخ قواعده أبو تمام. وما إن أشرفنا على القرن الرابع لم نجد إلا القضايا التي أفرزها الحراك العلمي والنقدي في القرن الرابع. ففي هذا القرن ظهر اتجاه نظري يبحث عن تأسيس علم الشعر في مؤلفين مهمين هما " عيار الشعر " و " نقد الشعر " وإذا كانت الخصومة النقدية حول طريقتين في كتابة الشعر قد نشأت وتبلورت في القرن الثالث ومات طرفاها أبو تمام والبحتري، فقد وجدت صياغتها النهائية والكبرى على يد الأمدى في " الموازنة " وجاء المتنبي شاعر القرن الرابع بلا منازع حاملاً في وجدانه ووعيه رحيق

شاعرين كبيرين من شعراء القرن الثالث هما أبو تمام وابن الرومي بالإضافة إلى تمثله كالنحلة أهم مسارين للشعر العربي منذ بدايته المعروفة وهما المسار الغيري والمسار الذاتي. لذا صار المتنبي مشكلا يحتاج إلى فهم وتفسير فتقدم عبدالعزيز الجرجاني بمحاولته التفسيرية لمشكل المتنبي في كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه "

هذا وغيره هو ما فات المبرد حين انحاز إلى أصوله اللغوية والنحوية وأنكر التغيير الحادث والمائل أمام عينيه في زمن عاشه هو أهم أزمان هذه الحضارة التي استقبلت واستوعبت وهضمت عطاءات الحضارات السابقة عليها ثم أثمرت ثمرتها. ولم يكن أمامه إلا أن يلحق شيئا مما فات، فكتب كتابه الروضة ليعلن لخصومه وناقديه أو مغايريه أنه يعي شعر هؤلاء الشعراء الذين بذروا بذور الشك في يقين المثل الوافد من الماضي والتفتوا إلى أنفسهم انطلاقا من الإنصات إلى وقع أيامهم. إن هؤلاء أنزلوا الشعر من عليائه في قصور الأمراء والوجهاء وخيام القبيلة إلى البسيط والعارض والهامشي من حياة الناس. فصار معبرا عن لغة الناس ولغة الباعة عند أبي العتاهية وعن افتقاد بشار لحماره بعد موته وعن تقديره لربابة خادمتة وديكها ودجاجاته العشر، كما صار هذا الشعر معبرا عن غواية الإنسان بوصفها وجهها مقابلا للهداية والصلاح على نحو ما أغوى بشار نساء البصرة وعلى نحو ما كتب أبو نواس عن اللذة والحرام والتشكيك في الغيب. لم يكن من السهل على المبرد أن يتقبل هذا التحول الجديد لأنه يحتاج إلى عقل زاده النظري الفلسفي زاد كبير مثل الجاحظ. لذلك حينما كتب المبرد " الروضة " لم يقدم فيها مواقف حاسمة ونهائية تمثل استجابته العقلية والوجدانية للشعر الجديد ولكنه قدم نماذج من شعر المحدثين لم تقارق موقفه الأصيل الثابت الذي وجدناه عليه في كتابه " الكامل " ولم يفارق الموقف التوفيقى عند ابن قتيبة مع أن ابن قتيبة صرح عدة مرات بأن العلم والمعرفة ليسا وفقا على أمة دون أمة ولا على زمن دون زمن وأن التقدم الزمني ليس مثبتا لصاحبه فضلا على من تأخر زمنه وكأنه يريد أن يقول إن الجودة لا زمن لها بل هي كامنة في النص الشعري، ومع ذلك لم يكن بقادر على أن يقبل خروج أحد من شعراء عصره على ما وضعه السابقون من الشعراء من أصول وقواعد ورسخ لمقولة أن الشعر الجيد هو ما اتفق معناه ولفظه مهذرا قيمة التصوير ودور الخيال في إعادة تشكيل الواقع وما به من أشياء وأمارات. ما أشبه المبرد بابن قتيبة.

إن الإحساس بالمفارقة عند المبرد كان إحساسا بنموذج واحد من الكتابة الشعرية هو الكتابة الشعرية الموروثة التي كان النسيج الشعري على منوالها أشبه بها مع أنه نتاج زمن ليس هو الزمن الماضي. فالمفارقة داخل النموذج الواحد مفارقة في الدرجة وليست في الكيف. ولم يدرك أن المفارقة تكمن في الإحساس بالتغيير والتطور: في الذوق العام أو في طبيعة الفن الشعري أو في المقاييس الأخلاقية التي يستند إليها الشعر أو في العادات والتقاليد التي يصورها أو في المستوى الثقافي ونوع الثقافة في فترة إثر أخرى أو في مجموعة من

القيم على وجه التعميم، هذا الإحساس بالتغير والتطور هو الذي يلفت الذهن – أو ملكة النقد – إلى حدوث مفارقة ما. ولا بد لهذه المفارقة أول الأمر أن تكون ساطعة متباعدة الطرفين حتى تمكن النظر الذي لم يألفها قبلا من رؤيتها بوضوح. على حد قول إحسان عباس.

وقد أدى هذا بالمبرد إلى أن يقع في التردد والتناقض فيقول في الكامل الجزء الأول: "وليس لقدّم العهد بفضل القائل، ولا لحدّثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق" وفي الكامل أيضا الجزء الرابع يصف أشعار المحدثين بأنها "أشكال بالدهر" ويقول عن المحدثين: "وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث" ثم يقول عن البحري في حديث أورده صاحب الموازنة: "ما رأيت أشعر من هذا الرجل.... لولا أنه ينشدكم كما ينشدني لمألت كتبي من أمالي شعره" ثم يضع معيارا للشعر الجيد لا يرتبط بأشعار المحدثين من الشعراء فيقول: "وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيرهن وساقه بوصف قوي واختصار قريب" ثم يضيف "وعدل به عن الإفراط" (19) هذه المعايير المجافية للإحساس بالتغير والتطور في الذوق والثقافة واللغة وطرائق التعبير هي نفسها التي حاكم بها الأمدي أبا تمام وبسببها كتب القاضي الجرجاني وساطته ليكون حكما بين فريقين مؤيد للمنتبي ومعارض له وهي التي تبلورت فيما بعد وعرفت باسم عمود الشعر وصاغها في شكلها الأخير المرزوقي في شرحه حماسة أبي تمام. وما يهمنا هنا أن المبادئ الفكرية العامة التي صاغها المبرد في صدر حديثه عن جودة النص الشعري وحق المحدثين من الشعراء في أن يكون لهم طرائق وأساليب في التعبير، لم تصمد عنده أمام حرصه الشديد على عمود الشعر وتغول الماضي على الحاضر.

هذه الكتابة المترددة والمتناقضة هي التي لم تمكنه من المضي قدما في التعاطف مع الشعراء المحدثين عندما كتب "الروضة" واتخذ من هذا الكتاب سبيلا للانتقاص من أشعارهم وخصوصا في مجال اللغة، وهو لغوي ونحوي متميز، بدليل أنه كان يورد خطأ الشعراء المحدثين في اللغة ومصادرهما، ولم يذكر لأحد منهم في هذا الكتاب فضلا. لقد كانت طريقته في "الروضة" هي التقليل من شأن المحدثين باختيار أضعف الروايات للبيت الذي يتصدى له بالنقد ليبرهن على ضعف لغتهم وتهالونهم في قواعد اللغة. ومن ذلك نقده لأبي نواس في أحد أبياته الشعرية التي ادعى المبرد فيها أن الشاعر أخطأ وهو لم يخطئ. ورد عليه ابن عذرة في العقد الفريد مؤيدا قول الشاعر. وقد وصف ابن عذرة مختارات المبرد في الروضة بقوله "فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له" (20) وصفة البرودة صفة تم للشعر والرجال على عادة العرب في إطلاق الصفات. وقد نقد هذا الاتجاه- أعني انحياز المبرد للقديم وادعاء نصرة الشعر المحدث – ما كتبه عبد المحسن طه بدر قائلا عنه "إنه كان يعنى بالشعر القديم. أما الحديث فلا يقترب من مجاله إلا إذا جرى مجرى القديم. وهو حين تفرض عليه الظروف التعرض للمحدثين يكون أميل إلى رفض ما جاء به المحدث واتهامه، في حين أنه إذا تعرض للقديم يكون أمي للاستحسان والقبول" (21). أما إحسان عباس فيرى أن المبرد كان فيما ذكره من أشعار المحدثين يعطف عليهم ويوفق بين أطراف الخصومة. (22)

وهذا غير صحيح بل إن موقفه كان يحكمه رغبته في نبوغ كتبه بين الفرقاء على نحو ما فعل ابن قتيبة نفسه في موقفه من الخصومة بين القدماء والمحدثين. هذه الرغبة في الفوز بكل شيء هي نفسها التي جعلته مضطرباً متردداً وقد خسر كل شيء
الإشارات المرجعية

- 1- صلاح قصوة / في فلسفة العلوم الاجتماعية / الأنجلو المصرية / القاهرة / 1987 / ص 230
- 2- محمد زغلول سلام / تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري / منشأة المعارف / الأسكندرية
- 3- ابن سلام / طبقات فحول الشعراء / تحقيق : محمود شاكر / دار المعارف / القاهرة / 1974 / ص 6/5
- 4- ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق / أحمد شاكر / القاهرة م 1977 / ص 34
- 5- الصولي / أخبار أبي تمام / تحقيق : أحمد أمين و خليل عساكر / القاهرة / ص 138
- 6- المرجع نفسه
- 7- راجع: أحمد يوسف / قراءة النص / دراسة في الموروث النقدي / الأنجلو المصرية 1989 / القاهرة ومكتبة دار الآداب 2008 / فصلاً بعنوان بناء الناقد
- 8- الباقلائي / إعجاز القرآن / تحقيق / السيد صقر / دار المعارف / القاهرة / ط 5 / 1981 / ص 299
- 9- المرجع نفسه / ص 125
- 10- إحسان عباس / تاريخ النقد الأدبي عند العرب / دار الشروق للنشر والتوزيع / عمان / 2011 / ص 15-16
- 11- راجع / أحمد يوسف / النقد الأدبي مفاهيم ونصوص / القاهرة 2002
- 12- محمد زغلول سلام / تاريخ النقد الأدبي والبلاغة / ص 132
- 13- ابن جني / سر الصناعة / ج 1 / ص 130
- 14- عبد الحكيم راضي / المقدمة التي كتبها لكتاب البيان والتبيين الجزء الأول نشرة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة / 2003 / ص 25
- 15- المبرد / الكامل في الأدب واللغة / تحقيق / إبراهيم الإبياري / الهيئة العامة لقصور الثقافة / القاهرة / 1994 / ص 29
- 16- عبد الحكيم راضي / المرجع السابق نفسه
- 17- الصولي / أخبار أبي تمام / ص 202
- 18- عثمان موافي / الخصومة بين القدماء والمحدثين / دار المعرفة الجامعية / الأسكندرية / 2000 / ص 50
- 19- المبرد / الكامل / ج 1 / ص 57
- 20- ابن عبد ربه / العقد الفريد / ج 3 / 268
- 21- عبد المحسن طه بدر / محاضرات في النقد الأدبي / جامعة بيروت / 1968 / ص 33
- 22- إحسان عباس / تاريخ النقد الأدبي عند العرب م 79